

ظهر في أوروبا منذ بداية القرن الخامس عشر تيار جديد من الأفكار الاقتصادية أطلق عليه مؤرخو الفكر وقد استمر هذا التيار سائداً من الناحية الفكرية ومن ناحية توجيهه ومن البديهي أن تياراً فكرياً يستمر هذه المدة الطويلة من الزمن - ما يزيد على ثلاثة قرون - ال يمكن أن ينسب بأكمله لمؤلف أو كاتب واحد أو حتى لعدد محصور من المؤلفين والكتاب. ومما يزيد قوة هذه الملاحظة أن مذهب التجاريين لم يتكون فقط على يد كتاب تخصصوا للبحث الاقتصادي، كذلك لم يتكون هذا التيار دفعة واحدة ولم يظهر برمته وتحدد معالمه بوضوح في وقت واحد، لتطور طويل وتشكلت آراء كل كاتب بالظروف وبالمصالح الخاصة بلده. بأن هناك أفكاراً مشتركة بين كافة الكتاب، هي التي يمكن استخالصها وتسميتها بأفكار أو بمذهب مدرسة التجاريين. والذي يجب فهمه بوضوح هو أن ظهور مدرسة التجاريين كان استجابة طبيعية للحاجات العملية التي ظهرت على أثر تطور المجتمع عما كان عليه في العصور الوسطى ولفهم هذا الارتباط بين ظهور المدرسة التجارية والتطور الذي سبقها يجب أن نلخص سريعاً أهم معالم هذا التطور ويمكن القول بصفة عامة، وفكرية، ونفسية. - 1 انهيار النظام الإقطاعي: كانت هناك عوامل عديدة، ولكن أثر هذه العوامل لم يبد بوضوح ولم يضع النظام الإقطاعي كله في أزمة قوية أدت إلى انهياره، وأول وأهم هذه العوامل هروب رقيق الأرض. فقد ألف السادة الإقطاعيون حياة الترف، وتناحروهم فيما بينهم إلى أن يحاول كل منهم تقوية مركزه، وقد ترتب على ذلك أن زادت حاجة أسياد الإقطاع إلى المنتجات التي يواجهون بها هذه الأعباء المتزايدة. ولمواجهة هذه الحاجة المتزايدة زادوا من استغلالهم لرقيق الأرض فطلبوا منهم حاصالت الأراضي التي تركت كما زادوا من أعمال السخرة) شكل من أشكال العمل ولم يستطع رقيق الأرض تحمل هذه الطلبات المتزايدة التي كانت تستنفذ كل منتجاتهم ومجهوداتهم ففضل الكثيرون منهم الهروب من ولما كان النظام الإقطاعي كله قائماً على الاقتصاد الزراعي الذي يعتمد بصفة أساسية على رقيق الأرض فانهيار النظام جاء لسبب داخلي هو هروب الرقيق، ممكناً وجود «المدن» التي استطاع الرقيق أن يهرب إليها. وقد كانت هذه المدن هي المراكز التي تبقت من الحضارة الرومانية القديمة حيث كان يوجد الصناعات والتجارة. نظراً لضعف التجارة على إثر نشوء ونظارات حاجات أسياد الإقطاع في بادئ الأمر كانت تشجع عن طريق الزراعة الإقطاع، على ما بينا أن أغلب وتبرز كعامل مستقل ومناهض للنظام الإقطاعي. نتيجة الاتصال أوروبا بالشرق الإسلامي في الحروب الصليبية من ناحية، والكتشاف العالم الجديد واكتشاف طرق مواصلات بحرية جديدة من ناحية أخرى. فأصبحوا يبذلون نشاطهم الاقتصادي من أجل الحصول على أكبر ربح ممكن. مالئاً وال كافياً للنشاط التجاري. فالتجارة تحتاج لقسط كبير من الحرية، ولذلك اتجهت أغلب المدن، عن طريق شراء حقوق السيد الإقطاعي الذي تدين له بالسيادة. بطبيعة الحال، وهم كقوة مستقلة أو ساعية إلى الاستقلال عن السيد الإقطاعي. وكانت إذا عجزت عن تحقيق استقلالها بطريقة سليمة تلجأ في أغلب، فهروب الرقيق من الأرض هو العامل الداخلي الذي زلزل الإقطاع، فهناك قوات أخرى انبثقت عن العاملين السابقين أو ارتبطت بهما، وقوت من اتجاه النظام الإقطاعي نحو الانهيار. فالقتصاد الإقطاعي اقتصاد «عيني» تحصل فيه المبادلات بصورة عينية. ولكن كشف العالم الجديد جعل الذهب والفضة يتدفقان على أوروبا، بالذات على «المدن» التجارية فيها. وسرى كيف كان التجار كما كشف كرسطوف كولومب أمريكا في نفس الفترة من السلع من الخارج، وهكذا اتسع نطاق التعامل بالنقود. وللحصول على هذه النقود التجأ الكثيرون من أسياد الإقطاع إلى بيع مالهم من حقوق إقطاعية عينية على أتباعهم وعلى من تبقى أو إلى إيجار أرضهم إلى «الفلاح الحر» وهكذا تحطمت رابطة التبعية وما تفرضه من التزامات عينية. الإقطاعي. فقد التقت مصالح التجار والملوك على ذلك. فمصلحة التجار في زيادة استقلال مدنها عن أمراء الإقطاع، ملكهم وسلطانهم والقضاء على سلطات هؤلاء الأمراء. وبالرجال الكفاء الذين ساعدوا الملوك في تصريف شؤون الإدارة المركزية وفي تولى الإدارة المحلية حيث يكون قد قضى على أمراء الإقطاع. ومما ساعد الملوك على الوصول إلى غايتهم موت كثير من هؤلاء الأمراء في الحروب الصليبية، وفقراً أغلب الباقين منهم على أثر ورود الذهب والفضة لأوروبا وارتفاع الأسعار. وهكذا قضى كل ملك على سلطات أمراء الإقطاع، أساساً قومي وتخضع لسلطة مركزية واحدة يرأسها حاكم هو الملك، وتشعر بمصالحها المستقلة عن مصالح - 2 أهمية طبقة التجار، هي الطبقة الموجهة للاقتصاد. وقد كانوا، يصدرون إليه والى بقية أجزاء العالم سلعا مصنوعة. ومن هنا التجأ التجار إلى الصناعة لخدمة التجارة فكانوا يجذبون الصناع بعيداً عن نطاق الإقليم الخاضع للتنظيم الطائفي، المواد الأولية وبعض الأدوات ليصنع لهم ما يطلبونه منه. يدوية يخضعون فيها لإشرافهم. طبقة جديدة هي طبقة «العمال» التي تعيش على بيع مجهودها عن طريق عقود أو اتفاقات يعقدونها مع وقد سمي هذا النظام الذي تحددت معالمه بهذه الصورة منذ منتصف القرن السادس عشر، وقد تطور هذا النظام في القرون اللاحقة تطوراً كبيراً على ما سترى. ولكنه في الفترة منذ منتصف القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر كان يتميز بأن التجارة كانت الرئيسية، وأن الصناعة كانت تابعة للتجارة وفي خدمتها. وكما

عاون التجار الملوك عاون الملوك التجار، تحقيق أكبر ربح ممكن للتجار سواء بتنظيم في داخل المصانع، أو بمنع تصدير المنتجات الزراعية حتى تبقى معروضة بكميات كبيرة في الداخل فينخفض ثمنها وتبقى أجور العمال تبعاً لذلك منخفضة، الحماية الجمركية حتى ال تستورد سلع مماثلة لما ينتجه التجار في الداخل فيتمكنون من تصريف بعض بل لقد اشتركت الدول مع هؤلاء التجار في تأسيس كثير من الشركات المخصصة للقيام بالتجارة في المستعمرات، فقد سميت الرأسمالية التجارية بـ «الرأسمالية التنظيمية» تمييزاً لها عن الرأسمالية الصناعية التي وجدت بعد ذلك والتي كانت تتميز بتطبيق الحرية الاقتصادية وعدم تدخل الدولة. ومن الطبيعي أن يقصر الجو الفكري الذي كان سائداً في القرون الوسطى أن يكفي مستلزمات هذا التطور فقد أخذ الأفراد يضيعون بالقيود التي وضعتها عليهم مبادئ الكنيسة والمدرسيين والتي كانت ولأرباح الضخمة التي جنوها أثر في تعديل نظرة الناس إلى الربح والسعي لتحقيقه، بما قامت عليه من إحياء الفلسفة القديمة كما هي ال كما فسرها وقد كان أثر وزعزعة مركزها وسيطرتها، وتأكيد شخصية الفرد وفي النطاق السياسي رأينا كيف أخذت الدولة بمعناها الحديث في التكون والظهور. وكان راجع في pp. تكوين الدولة ومقاطعهم المستقلة لتجعل منها أجزاء من دولة واحدة. أن تكون تلك الدول قوية، وهي توحيد الدولة تلخيص المعالم العامة لحركة النهضة من الناحية الفكرية: واحتياجاتها من هذه الناحية، فقرر أن السياسة يجب أن تنفصل عن الأخلاق والدين، وأن الأحوال تحتاج إلى ذلك هو التطور الذي حدث. هذا التطور الشامل. وكانت الحاجة إلى مدرسة جديدة من المفكرين الاقتصاديين توفيق بين مصلحة الدولة ولم تكن تلك المدرسة سوى في كل بلد أوروبا، وال يتفق هؤلاء الأنصار جميعاً على كافة النقط. ولكن يمكن القول، بأن هناك أسساً عامة تجمع تفكيرهم جميعاً، وهو ما نتعرض له في تحليلهم الاقتصادي وسياستهم الاقتصادية، -4 التحليل الاقتصادي: ال نجد لدى التجاريين تحليل اقتصادياً واسعاً. وحاولوا لذلك فقد تساءلوا مثال: ما هي الثروة؟ وكيف يمكن أن تزيد؟ وكيف يمكن أن توزع الثروة التي في العالم كله بين البلاد المختلفة؟ وما هو سبب ارتفاع مستوى الأسعار الذي كان تكون فلسفتهم العامة والتي يمكن تلخيصها فيما يأتي: ويجب أن تكون غاية النظام الاقتصادي هي تحقيق هذه القوة. ولذلك سميت نظرتهم بنظرية «الاقتصاد للقوة». -5-6 والثروة هي أهم ما يحقق قوة الدولة. ولذلك يجب أن تسعى الدولة لتنمية ثروتها. ولكن ما هي الثروة؟ وهنا يجيب التجاريون بأن الثروة هي الذهب والفضة وبقية المعادن النفيسة. ثروة الفرد بما يملكه من نقود، والنقود في هذه الفترة كانت كلها نقوداً معدنية، وعلى قدر ما يتوفر لها منها. -3-6 نظر التجاريون إلى الثروة الكلية في العالم على أنها ثابتة الحجم. اعتبروا أن ما تكسبه دولة من الدول من هذه الثروة إنما يكون عن طريق ما تفقده دولة أخرى طابع وطني، أن كل دولة يجب أن تنظر لمصلحتها هي، وقد حاولوا الكشف عن السبب الحقيقي لهذا الارتفاع. ولكن النقود فإذا زادت كمية النقود ارتفعت الأسعار وانخفضت القوة الشرائية للنقود، والنقود، وهكذا وضع جان بودان أسس النظرية اللاحق وظلت مأخوذاً بها حتى منتصف القرن العشرين. قوة الدولة، الاقتصادية لتحقيقه. فالدولة يجب أن تكون قوية، وقوتها تعتمد على ما لديها من ثروة، والفضة ولذلك يجب العمل على زيادة ما لدى الدولة منهما. وقد رأينا، أن التجاريين قد نظروا لمقدار الثروة في العالم على أنه حجم ثابت. بأن توجد به فائضاً إيجابياً، في الخارج والواقع أن هذه الفكرة نتيجة طبيعية لتفكير التجاريين ولنظيرتهم في الثروة، من قبل الخارج عن ديونها هو الطريق الطبيعي للحصول على الذهب والفضة من البلاد الأخرى. غير أنه إذا كان ذلك هو المبدأ العام الذي وجه سياسة الدول في تلك الفترة، فإن كل دولة قد طبقت بصفة عامة بين ثلاثة أنواع من السياسات التي طبقت في هذا الصدد، والثانية في فرنسا والثالثة وستعرض لهذه السياسات بشيء من التفصيل. -1-5 السياسة الإسبانية: وتعرف تلك السياسة باسم السياسة المعدنية وتقوم على الحصول على الذهب والفضة من المستعمرات كميات كبيرة من هذين المعدنين تدخل كل سنة إلى أسبانيا، كما منع خروجهما بقدر المستطاع من أسبانيا للبلاد الأخرى. كذلك لجأت إلى تنظيم التجارة الخارجية بطريقة تكفل منع خروج الذهب والفضة للبلاد الأخرى. أ - كانت السفن التي تنقل بضائع إسبانية للخارج ملزمة بأن ترد إلى داخل إسبانيا قيمة تلك البضائع - كان يسمح، بخروج الذهب والفضة في بعض الحالات، الملك ودفع النفقات اللازمة للبعثات المقدسة التي كان يرسلها الملك للخارج. وبالاختصار، فقد اتبعت أسبانيا أقصر وأيسر الطرق للحصول على الذهب والفضة. وذلك باستخراجها مباشرة و منع خروجها من البلد. الأسعار، مما شجع في بادئ الأمر، ونشاط الأسواق التجارية. وقد عجزت الحكومة عن منع خروج بعض كميات من المعادن التي كانت تهرب وتصدر خفية إلى بلد أوروبا -2-5 السياسة الفرنسية: وتعرف السياسة الفرنسية التي طبقت حينئذ باسم السياسة الصناعية وهي تنسب عادة إلى الوزير الفرنسي وتقوم هذه السياسة على أن فرنسا - في سبيل الحصول على الذهب والفضة من الخارج - يجب أن تتجه لزيادة الصادرات على الواردات، على أن تكون الصادرات من تكون في الغالب قيمتها أكبر من المنتجات الزراعية إذا تساوى حجمها، وأن الصناعة ال تخضع

لتقلب العوامل الطبيعية غير المنتظمة مثل الزراعة، وبذلك يمكن التحكم بسهولة في كمية المنتجات الصناعية وخدمة الصناعة في توسعها. وتقويتها. بعض المنتجات. ومن أمثلة ذلك صناعة جوبالين المشهورة. تطبيقها. ففرضت رسوما جمركية ثقيلة على السلع التي تأتي كان البد من خفض تكاليف الإنتاج، وبالذات ثمن المواد الأولية، وأجور العمال. ولتخفيض أثمان المواد الأولية، باهظة على بعضها الآخر، وترك استيرادها بدون رسوم أو رسوم ضئيلة جدا. الاحتفاظ بأجور منخفضة. لذلك عملت الدولة على جعل عرض المواد الغذائية كبيرا في الداخل، ولذلك أيضا منعت أو حددت تصدير المنتجات الغذائية، وثالثا: لكي تيسر الدولة التصدير عملت على خلق شركات كبيرة تكون مهمتها الرئيسية تصريف منتجات الصناعة في الخارج وشجعت الأفراد على الالكتتاب في رؤوس أموال تلك الشركات. وقد أدت كل تلك الإجراءات إلى تشجيع الصناعة الفرنسية. بقيت، صناعة صغيرة، -3-2 السياسة الإنجليزية: وتعرف باسم السياسة التجارية وتقوم على الحصول على المعادن من الخارج عن طريق القيام بالتجارة بين البالد المختلفة. وقد ساعد إنجلترا على ذلك أسطولها التجاري التقليدي الذي تميزت به على الدول وكان قصدها الأساسي، هو القيام بالتجارة الخارجية. إنجلترا بدرجة ال تقل عن درجة نموها في فرنسا في تلك الفترة. وكل ما هنالك أن الاهتمام الرئيسي في سبيل فرضت من القوانين ما يحمى تلك التجارة. ومن أمثلة ذلك قانون ومستعمراتها مملوكة أشخاص إنجلترا، وأن يكون ثلاثة أرباع البحارة من إنجلترا، الواردة من الخارج إنجلترا إل سفن إنجليزية أو تابعة للبالد المنتجة لتلك البضائع. كانت الدول الكبرى كلها تطبق ما يعرف باسم العهد الاستعماري والفكرة الأساسية التي تصدر عنها قواعد هذا العهد، لخدمة اقتصاديات الدول الاستعمارية وبالذات لتسهيل حصول هذه الأخيرة على ميزان تجاري إيجابي. تأتي من الدول الاستعمارية أو عن طريقها، من المستعمرات فيجب أن تصدر فقط للدول الاستعمارية وعلى سفن تابعة لها كذلك ال يمكن للتجار في وأخيرا، يحرم على المستعمرات إقامة صناعات بها. 1- الموقف المذهبي للتجاربيين: ولكن لم يصل بهم ذلك إلى حد إفناء الفرد في الدولة، إذ كانوا يعترفون بالملكية الفردية، ويمكن القول، مع 1- تقدير مذهب التجاربيين: في العصور الوسطى. وهم وان لم يصلوا إلى إرساء علم الاقتصاد بوصفه علما مستقال، نظرا لربطهم إياه بخدمة «السياسة» بصفة عامة، مالحظة ما يأتي على آرائهم: - إذا نظرنا إلى الظروف التاريخية التي نشأت بها مدرسة التجاربيين، لكي تقضى على سلطان أمراء الإقطاع، عن طريقها الحصول على الأنصار في الداخل والخارج، قيام الدول الحديثة من الناحية السياسية. في خلق البنوك الأوروبية، الرأسمالي، ويسرت الانتقال من مرحلة الإقطاع إلى مرحلة الرأسمالية. واثروة كل بلد في قدرته نما ومن المتصور ال يمتلك بلد من البالد أي مقدار من هذين المعدنين وأن تكون ثروته، كبيرة، إذا كانت قواه الإنتاجية واثناجه الفعلي كبيرين. - وفيما يتعلق بمبدأ إمكان الحصول بصفة مستمرة على فائض إيجابي في الميزان التجاري، ومن ثم فقد أثبت تحليل الاقتصاديين خطأ هذا المبدأ. فقد بين آدم سميث عدم إمكان ذلك ألن وجود فائض إيجابي بالميزان التجاري يؤدي إلى ورود النقود الذهبية من الخارج لتسديدها هذا الفائض، مما يجعل السلع الوطنية مرتفعة الثمن فيقل تصديرها للخارج، بل إن الاستيراد من الخارج يزيد، ولتغطية هذا العجز، وهذه سياسة قد تكون ممكنة إذا طبقتها فإنها ال يمكن أن تحقق الغرض المقصود أما في النطاق العلمي فيالحظ ما يأتي: اهتمت الحكومة بصفة أساسية باستيراد الذهب، مما أدى إلى زيادة كمية النقود مع عدم زيادة المنتجات بنفس النسبة، ترتب على سياسة الحكومة التي من مقتضاها الاحتفاظ بأثمان منخفضة للمواد الزراعية بأنها ضحت وفرع هام من فروع الإنتاج، وفرع آخر، وهو الصناعة. - كذلك قد أضر العهد الاستعماري إضرارا بالغا، المستعمرات فقد كان من مقتضاه أن تشتري الدول الاستعمارية المنتجات بأسعار رخيصة وبيعها ومع ذلك يجب مالحظة أن بعض التجاربيين قد بينوا أن الثروة هي في الإنتاج من صناعة وزراعة، وأن النقود بكثرتها تيسر هذا الإنتاج وتنميته، للمستعمرات بأسعار مرتفعة،